كمال بُلاّطه*

يوم نام "في بيتنا رجل"

في العدد ١١٢ (خريف ٢٠١٧)، ص ١٩١ من "مجلة الدراسات الفلسطينية" فرحتُ برؤية صورة تخطيط خاطف بقلم الحبر كنت قد قمتُ برسمه لوجه صديق الصبا هاني جوهرية في إحدى صفحات دفتر الرسم الذي كان يحمله دائماً صديقنا المقدسي المشترك فلاديمير تماري.

ففي محاولة توثيق لذكرى الصديق الفنان الذي تفانى في صدقه وعطائه حتى يوم شهادته، جاءت مقالة فلاديمير من طوكيو (المصدر نفسه، ص ١٩٠ – ١٩٥) بمثابة توثيق لوداعه الخاص لعالم نحن فيه أحببناه، مع أنه كان يتجاهلنا. وقد جاءت فرحتي في خضمّ الأسى، لأنها توثيق لهذه اللحظة العابرة بيننا، والتي لا بد من أننا كنا فيها في ذلك اليوم من أواسط الستينيات قد التقينا كالعادة حول طاولتنا الصغيرة في زاوية الجنينة الداخلية لمقهى خضر الواقع على درج الخمارات في البلدة القديمة في القدس.

تداعي الأسماء

أثار هذا العدد في ذاكرتي تداعيات وتفصيلات كتبها محمود شقير ونظمي الجعبة عن ذاكرة سقوط القدس في سنة ١٩٦٧، تلك السنة المروعة التي كنت فيها بعيداً عن مدينتي. وما أدهشني في هذا السياق، هو ذلك الخيط الخفي الذي حاك توالي المصادفات وتلاقيها عبر ما ورد من تفصيلات ثانوية في نصوص المساهمين المقدسيين، أو فيما جاء من أسماء ورد ذكرها في العدد الواحد بحيث تلامست هذه الأسماء بشفافيةِ نسيجٍ خفي في ذاكرتي، إذ لم يقتصر لقاء الأسماء هذا كاسم أخي عيسى (المصدر نفسه، ص ١٣٩) واسمي (ص ١٩١)، بل شمل ما ورد في لقاء اسمَي الدكتور يعقوب زيادين (ص ٣٣) وصالح جلاّد (ص ٩٤) من دون وجود علاقة مباشرة بينها.

يذكر محمود شقير (ص ٣٣) اختفاء الدكتور يعقوب زيادين ممثل الحزب الشيوعي في البرلمان الأردني، والبحث عنه في القدس في إثر الانقلاب الذي قام به الملك حسين ضد حكومة سليمان النابلسي. يومها أعلنت الحكومة العسكرية الأحكام العرفية، وقامت بحظر نشاط الأحزاب السياسية، علاوة على شن حملة اعتقالات واسعة ضد كل مَن أبدى

* فنان تشكيلي فلسطيني.

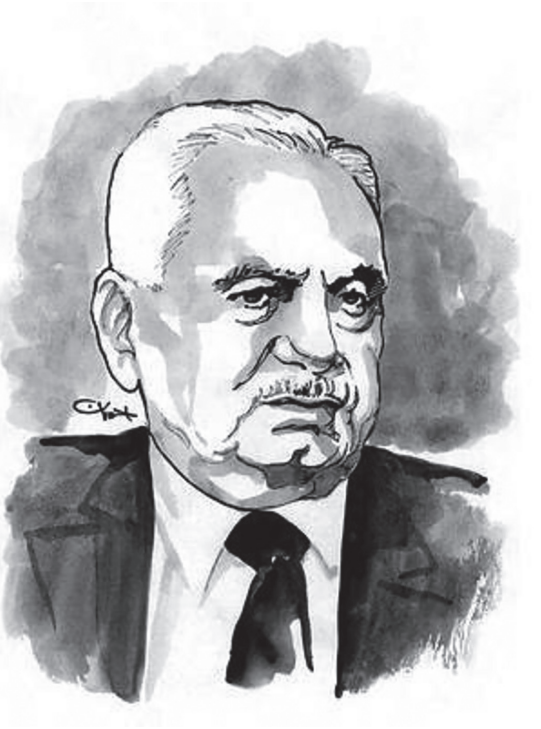

بورتريه للراحل يعقوب زيادين بريشة إحسان حلمي.
المصدر: موقع جريدة "الغد" الأردنية الإلكتروني.

رأياً مخالفاً لسياسة القصر في عمان.

أذكر جيداً ذلك اليوم الربيعي الذي اهتز فيه البلد عندما سقطت القدس تحت وطأة الحكم العسكري، وفُرض علينا منع التجول. فبين ليلة وضحاها، أصبح أهل المدينة أسرى بيوتهم، بينما جابت قوات من جيش البادية الأردنية أزقّة البلدة القديمة. وبعد أيام معدودة، رُفع منع التجول خلال فترات متنوعة من ساعات النهار، سُمح خلالها لأهل المدينة بالخروج لقضاء حاجاتهم الضرورية قبل العودة إلى بيوتهم والجلوس حول الراديو لمتابعة استماعهم إلى البيانات العسكرية الأردنية، أو لمحاولة التغلب على ذبذبات التشويش المتواصلة من أجل الاستماع إلى ما قد يأتي به المذيع المصري أحمد سعيد من حماسيات عبر إذاعة "صوت العرب" التي بات سماعها محظوراً في الأردن.

الرجل ذو الوشاح المرقّط

في ذلك اليوم من نيسان/أبريل، قبيل الخامسة مساء بدقائق، والتي أعلنت بداية منع التجول اليومي، دق بوّابة الدار رجل يلبس معطفاً رمادياً طويلاً كان قد تلثم بوشاح مرقّط. عندما أطلّت والدتي من الشباك، بان وجه الرجل الذي أسرع برفع رأسه ليعرّفها بنفسه. كان الرجل هو الدكتور يعقوب زيادين الذي كان طبيب الوالد. تسمّر كل أفراد العائلة في مكانهم لدى سماع اسمه، إذ أدركنا جميعاً في تلك اللحظة خطورة استقباله، لكن والدي، من سريره، أمر بحزم بفتح الباب فوراً. وفي أثناء صعوده درج البيت الداخلي، رأيت طبيب أبي يخلع الوشاح ويدسّه في جيب معطفه الرقيق. لكنه لم يكن على عادته ببشاشته المعهودة وببدلته المميزة وقميصه الناصع البياض ورباط عنقه الأنيق، وإنما جاءنا هذه المرة من دون رباط عنق في بدلته التي ألفناها وقد بدا عليه التعب. أمّا ما لفت انتباهي فكانت مفارقة غياب لمعة حذائه الأسود، إذ جاءنا في ذلك اليوم بحذاء قماشي خفيف كنا نسمّيه حفّاية لقدرتها على إخفاء صوت الدعسات؛ هذه الحفاية ذاتها التي تعلَّمنا أن لباسها كان يشير إلى إمكان أن يكون لابسها يعمل في إدارة الاستخبارات الأردنية.

بعد أن قام الدكتور بمصافحة جميع أفراد العائلة بدفئه ووداعته المعهودين، ناولَته أختي سعاد قدحاً من ماء بئرنا تجرّعه بنهم قبل أن يجلس للحديث مع أبي، والاستفسار عن حالته الصحية. وبعد مرور بعض الوقت،

ومن دون أن يشير أحد إلى هبوط الليل وموضوع منع التجول في الطرقات، طلبت منه أمي الانتقال إلى غرفة الضيوف قبل ذهابها إلى المطبخ لإعداد وجبة العشاء، بينما بدأت أختاي بإعداد السفرة. وفي غرفة الضيوف، جلستُ إليه مع أخوَي عيسى وجميل اللذين يكبرانني، نسمع رأيه فيما حلّ بالبلد من أحداث. وكانت هذه هي المرة الأولى في حياة ابن الخامسة عشرة من العمر التي سمعت فيها مباشرة من مسؤول سياسي منتخب تحليلاً للوضع السياسي في الوطن العربي من منظور راديكالي صريح لم تسنح لي فرصة الاطلاع عليه خارج ما قرأته في المنشورات السرّية التي كنت أحصل عليها خفية من مؤيدي الحزب الشيوعي في حارتنا بالبلدة القديمة.

فعلى بُعد خطوات من بيتنا القائم داخل أسوار باب الخليل الذي كان قد سُدّ بالباطون والأسلاك الشائكة بعد سقوط غربي المدينة تحت احتلال القوات الإسرائيلية، كان ما عُرف بخان الأقباط الذي باتت مساكنه خير ملجأ لعائلات من طوائف متعددة ممّن فقدَ بيته من المقدسيين بعد النكبة، وقد تولت عائلة مقدسية من الأقباط مسؤولية إدارة شؤون الخان، وكان ابنها الأكبر تزعّم ما اعتُبر خلية سرّية للشيوعيين في البلدة القديمة. وعلاوة على المناشير التي قام الرفاق بتوزيعها سرّاً بين مريديهم، كان بعضهم في خفاء ساعات الليل يكتب بالفرشاة العريضة والطلاء الأسود الشعارات الوطنية على جدران الأزقة داخل أسوار المدينة القديمة، وكنت أترقب قراءتها كل صباح في طريقي إلى المدرسة. وبين أسماء تلك المجموعة من الشباب، لا أذكر اليوم سوى اسم علي، ذلك الشاب الوسيم، الخليلي الأصل والأصول الذي كان يعمل مرشداً سياحياً لدى مكتب فكتور مرّوم لسياحة الأراضي المقدسة، فكثيراً ما رأيت أحدهم بين الوفود السائحة يناديه: "آلي..ألي!". وكنت أرى علي يتوقف عند بوابة الخان لاحتساء قهوة الصباح مع الإخوة الشباب قبل متابعة طريقه مع قطيعه من السيّاح. ولم أتعرّف على الاسم الكامل لهذا الخليلي المتأنق إلاّ بعد استشهاده في سنة ١٩٧٢عندما كان ترحالي قد حطّ بي في واشنطن، حيث فوجئت برؤية صورته في مجلة "الهدف" التي أعلنت أنه كان قائد عملية مطار اللد.

في طريقنا إلى سفرة العشاء، كان لا بد من أن يمر الدكتور زيادين بالقرب من ركن طاولتي الدراسية التي ألصقتُ على أحد جدرانه صوراً فوتوغرافية قمت بقصّها من مجلة "المصور" المصرية. وجاء في أعلى هذه الصور، أول صورة كنت رأيتها لكامل أعضاء مجلس قيادة الثورة في مصر وهم في لباسهم المدني وقد توسطهم الرئيس جمال عبد الناصر. مرّ الدكتور زيادين على هذه الصورة الكبيرة من دون أي إشارة، ليتوقف بعد برهة عند صورة أصغر منها لنيكولاي بولغنين الذي كان يشغل آنذاك منصب رئيس الحكومة في الاتحاد السوفياتي. وهنا تريث قليلاً ونظر إليّ وابتسم، فشعرت بشيء من الخصوصية إذ كان حتى تلك الساعة قد توجه في معظم ما جاء في حديثه إلى أخوَي الكبيرين.

بعد تناول العشاء طلب الدكتور زيادين بلطفه المعهود أن يُسمح له بالصعود إلى سطح البيت لاستنشاق بعض الهواء الطلق، أمّا هدفه الذي لم يعلنه، فكان بلا شك حاجته إلى

تفقّد الأسطح المجاورة والملاصقة لسطح بيتنا في حالة اضطراره إلى الهرب. تاركاً معطفه على كرسيه، صعد ضيفنا المطارد السلم الضيق المؤدي إلى السطح وراء أخي عيسى، وبينما كنت ألحقهما بان لي ما بدا شكل مسدس صغير تدثر تحت سترته. واعتراني شعور بالاعتزاز والفخر لكوني ضمن مهمة سرّية بصحبة مناضل حقيقي.

لا أدري كيف تمكنت من النوم في تلك الليلة التي اعتبرتها حدثاً تاريخياً في مطلع شبابي، لكني أذكر جيداً أنني استيقظت في ساعات الفجر الأولى لليوم التالي على سماع صوت أبي الخافت بينما كان يحتسي قهوته مع أمي التي جلست قرب النافذة التي أطلّت منها على الوجه الملثم في اليوم السابق. وحزنت بقدر ما غضبت، عندما فهمت من تبادل حديثهما أننا بفعل الظروف القلقة الآنية لوضع البلد، علينا الطلب من ضيفنا مغادرة البيت بعد تناول وجبة الفطور، وعقب السماح بالخروج إلى الشارع. وكان على أخي الأكبر تولّي مسؤولية إخباره والاعتذار له. وهكذا كان.

غادرنا الدكتور يعقوب زيادين بسرعة البرق، وبصمت تام بعد شكر وجيز، وتلحّف من جديد بمعطفه الرمادي الطويل ووشاحه المرقط، خافياً عينيه وراء نظارة شمسية. وتوارى عن الأنظار تاركاً غصة في قلبي.

خلال أيام معدودة تلت استقبالنا الضيف المطارد، دوهم بيتنا من السطح. وبينما فوجئنا بظهور فريق ملثم من الجنود الأردنيين المدججين بالأسلحة المصوبة من السطح في اتجاه حظيرة البيت، سمعنا الدق العنيف على بوّابة الدار. فتحت سعاد الباب وهي ترتعد، ودخل ضابط ممتلىء الجسم والقوام مع رفيق له. سارع أخي عيسى إلى استقبالهما. وبينما كان الضابط بملامحه الصارمة يصعد درج البيت بحزم، بدا لي أن استدارة وجهه ليست بغريبة عني، كأنني كنت قد رسمت ملامحه في المنام. وكان لا بد لي من أن أعرّيه في مخيلتي من سترته العسكرية التي امتلأ صدرها بشارات الاستحقاق الملونة، وازدحمت كتفاها بالنجوم الفضية، لأبدأ باستعادة ذكرى الوجه بالتدريج. وفي اللحظة التي سمحتُ لمخيلتي بأن تنتزع الفيصلية التي توسطتها شارة التاج والسيفان عن رأسه، تذكرت أنني في الواقع كنت قد رسمت ذلك الوجه يوم رأيت صاحبه بالبيجاما قبل أربعة أعوام عندما شاركته الغرفة في مستشفى المدينة القديمة الذي عُرف بالعامية باسم "سبيس النامسا" (أي هوسبيس النمسا) الواقع عند الزاوية الأقرب من المرحلة السادسة على طريق الآلام. لكن الضابط المندفع إلى اجتياز مهمته لم يكترث بالنظر إليّ، وإنما كان منشغلاً بمصافحة أخي عيسى. ودخل مع رفيقه غرفة الضيوف ولحقت بأخي وراءهما.

بعدما روى عيسى تفصيلات ضيافتنا لطبيب الوالد، وكيف طلبنا منه مغادرة البيت في صباح اليوم التالي، انتهى الاستجواب مع انتهاء القهوة ومراسيمها، ولانت الأجواء. وفي بحبوحة الحديث عبّر الضابط عن ارتياحه إلى أن أخي كان أستاذ اللغة والأدب العربي في مدرسة المطران حيث كان أبناؤه الثلاثة تلامذة لديه. فانتهزت حميمية هذه اللحظة، وذكّرته بأنه شاركني الغرفة في المستشفى قبل أربعة أعوام، فتهلل وجهه وصاح: "أنت كمال الرسام إذاً!" وقام ليعانقني بدفء الأب الذي عرفته حين كان يطمئن الوالدة كلما

جاءت لزيارتي في المستشفى. واستعاد لأخي ذكرى ذلك اليوم الذي عرف فيه أنني أحب الشعر، وكيف روى لي أبياتاً من الشعر في مقابل أن أرسمه، وكيف أنه احتفظ بتلك الصورة بعد خروجه من المستشفى. وضحكنا جميعاً!

سعادة جلاّد كان اسم الضابط. وبعد أعوام من لقائي الأول به في المستشفى، كان ابنه صالح ضمن أقرب الأصدقاء في مدرسة المطران، ولو أنه لم يكن من تلامذة صفي الدراسي، لكنني آنذاك لم أربط بين اسم الصديق واسم ذلك الرجل الذي عرفت طيبة وجهه في الرسم.

أمّا ما يضحكني اليوم وأنا أستعيد خيوط الذاكرة هذه، فكان موقفي من رواية إحسان عبد القدوس "في بيتنا رجل" التي كانت قد صدرت في مطلع ذلك العام. فحتى بعد تعميم الشائعة بأن الدكتور زيادين كان مختبئاً لدى الحزب الشيوعي الإسرائيلي، إلاّ إنني لم أبح لأحد بأنه في الواقع قضى الليلة الحاسمة من أيام البحث عنه في بيتنا. وكلما حثّني الأصدقاء على ضرورة قراءة الرواية، ومن بعدها مشاهدة الفيلم المقتبس منها وهو من بطولة عمر الشريف وإخراج هنري بركات، كنت أرفض ذلك، كما رفضت مشاهدة الفيلم فيما بعد، إذ كنت أرى آنذاك أن ما هو أهم من الروايات والأفلام هو أن يعيش المرء تجربتي وتجربة إخوتي وأخواتي يوم "نام في بيتنا رجل". ■

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

نكبة وبقاء: حكاية فلسطينيين ظلوا في حيفا والجليل (١٩٤٨ ـ ١٩٥٦)

عادل مناع

٤٩٦ صفحة ١٢ دولاراً